الحاجة إلى أخلاق الدين عند طه عبد الرحمن

د. زريمق ملولد أبوطلاق
كلية الآداب الزاوية–جامعة الزاوية

المقدمة:

الحمد لله، علمّ القرآن، خلق الإنسان، علَّمه البيان، والصَّلاة والسَّلام على من نطق بأفصح لسان، وأجمع بيان، وعلى آله ومن سار على دربهم إلى يوم القيامة، أمَّا بعد.

فيعد المفكِّر المغربي (طه عبد الرحمن) من أهم الفلاسفة المعاصرين الذين اهتموا بالمسألة الأخلاقية، التي تعد من أكثر الإشكاليات التي دار حولها الجدل والنقاش، وخُصصت لها كتب ومؤلفات الفلاسفة والمفكرين على مر العصور.

فالأخلاق باتت من أشد علامات التمايز بين الأمم والحضارات المختلفة، على الرغم من اتفاق الناس على إجلال شأنها، ولعل مفكِّرنا (طه عبد الرحمن) خير دليل على ذلك، فقد خصص كتابًا مستقلًا لها، أسماه: (كتاب سؤال الأخلاق)؛ مساهمة فعَّالة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية.

وقد أراد (طه) تصحيح مسار تلك الحداثة، وبيان ثغراتها ومنزلقاتها ونتائجها السلبية الناجمة أساسًا عن ابتعادها عن الدين والأخلاق، والتأكيد على أنَّ الحداثة المأمولة إذا شاءت أنْ تكون أخلاقية وصالحة، فلا بد أنْ تعتمد على الدين الإسلامي، الذي سيمنحها تلك الروح التي افتقدتها في واقع المجتمعات الغربية، وهذا ما سيتضح خلال صفحات هذا البحث.

الإشكالية:

في سبيل الوقوف علي موقف (طه عبد الرحمن) من هذه المسألة، فالإشكالية الأساسية لهذا البحث تتناول الأسئلة التالية:

– لماذا اهتم طه عبد الرحمن بهذه المسألة؟

– ما موقفه من التيارات الفكرية والرؤى الفلسفية المتعلقة بالمسألة الأخلاقية؟

أسباب اختيار موضوع الدراسة:

ترجع دوافع الاختيار إلى:

1– رغبتي في دراسة الشخصيات الشهيرة، والمتميزة بأفكارها، التي أثَّرت في نفوس الناس.

2– حاجتنا إلى التواصل مع أسلافنا الذين تركوا لنا إرثًا علميًا غزيرًا في مجالات الحياة.

3– إحياء ماضي أمتنا خلال ذكر فضل علمائها ومفكريها في حقل العلم والمعرفة، وقادتها الذين ساروا بها إلى الإصلاح.

أهمية البحث:

1– تنبع أهمية البحث من شرف موضوعه؛ حيث أنَّ مادته الأساسية تتعلَّق بالواقع المعاش، وهو البناء الأخلاقي للأمة، كما يجسِّدها الخلق النبوي الشريف، وفي هذا ما يعد زادًا لتربية الأجيال.

2– تكمن أهميته أيضًا في توضيح مفهوم الأخلاق وعلاقتها بالدين عند طه عبد الرحمن، وما يترتب عليها من آثار، مع بيان مواضع الاتفاق والخلاف بين المفكرين في هذه المسألة.

الأهداف:

1– تهدف الدراسة إلى إبراز مكانة طه عبد الرحمن في المشهد الثقافي والفكري المعاصر.

2– تهدف إلى التذكير برجال الأمة أمثال: طه عبد الرحمن، والتعريف به اليوم وبأعماله ونضاله باللسان والقلم في سبيل الحفاظ على الأخلاق الإسلامية.

منهج الدراسة:

أمَّا بالنسبة للمنهج المستخدم فهو: المنهج الوصفي التحليلي في دراسة آراء وأفكار طه عبد الرحمن من خلال كتابه الشهير (سؤال الأخلاق) المتعلق بالبحث، وعليه سيدور نقاشنا حول النقاط التالية:

المبحث الأول- مصطلحات البحث:

سنعرف الأخلاق أولًا، ومن ثم الدين ثانيًا.

أولا: تعريف الأخلاق:

1- لغة: الأخلاق في اللغة جمع خُلقُ.

فقد جاء في لسان العرب: "الخلُق بضم اللام وسكونها: هو الدّين، والطبع، والسجية، وحقيقته أنَّه صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيه المختصة بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة"[1].

2-اصطلاحًا:

يعرِّف الجاحظ (255-159هـ) الخلق: بأنَّه: "حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعال بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعًا، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد[2]".

ويعرِّف ابن مسكويه (932م -1030م) الخلق بأنَّه: "حال للنفس، داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويَّة، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيًّا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، أو كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكًا مفرطًا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتمُّ ويحزن من أيسر شيء يناله، ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرُّب، وربما كان مبدؤه بالرويَّة والفكر، ثم يستمر أولًا فأولًا، حتى يصير ملكة وخلقًا"[3].

ويعرِّف الغزالي الخلق بأنَّه: "هيئة في النفس راسخة عنها، تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فإنْ كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سميت تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإنْ كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا"[4].

وأيضًا نجد لدى مقداد يالجن تعريفًا للأخلاق، حيث يقول: "الأخلاق الحسنة هي أنماط السلوك الحسن والخير والمعروف في الحياة، سواء كان هذا السلوك ظاهرًا أو باطنًا، يصدر من الإنسان بإرادة ويهدف إلى تحقيق غاية"[5].

ومن خلال هذه التعريفات يمكن لنا القول بأنَّ: الأخلاق صفة نفسية، ذات أثر في السلوك الإنساني، وبالتالي يمكن لنا أنْ نحكم عليها حسب الأفعال بالحسن، أو القبح عن طريق المقياس القيمي.

والأخلاق هي شكل من أشكال الوعي الإنساني يقوم على ضبط وتنظيم سلوك الإنسان في كافة مجالات الحياة الاجتماعية بدون استثناء، ووضع الدين أساسًا لتنظيم حياة الإنسان وعلاقته مع نفسه، ومن جملة هذه العلاقات تتكوَّن الأخلاق والقيم.

ثانيًا- الدين لغة واصطلاحًا:

1-لغة: جاء الدين في اللغة العربية: "لفظ له أصل واحد يدل على: الانقياد، وإليه تعود كل استعمالاته اللغوية التي تقوم على وجود علاقة بين طرفين: أعلى وأدنى، يعظم أحدُهما (الأدنى) الآخر (الأعلى)، ويعادله[6]".

2-اصطلاحًا: توجد تعريفات مختلفة للدين بوجه عام، من بين هذه التعريفات: تعريف عبد الله دراز: "الدين هو الاعتقاد بوجود ذات- أو ذوات غيبية - علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرُّف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان، أنْ يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد، أو بعبارة موجزة: الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة[7].

المبحث الثاني- الإنسان بين العقلانية والأخلاقية عند طه عبد الرحمن:

قبل أنْ نبدأ في عرض رأي مفكرنا المغربي (طه عبد الرحمن) في هذه المسألة، ينبغي علينا أنْ نشرع أولًا في تعريف العقل.

جاء في لسان العرب: "العقل: الحجْر والنهي ضدّ الحُمق، وقال ابن الأنباري: "الرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت التعبير إذا جمعت قوائمه، وقيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها، أُخذ من قولهم: قد اعتقل لسانه؛ إذا حُبس ومُنع الكلام، والعقل: التثبيّت في الأمور... وسمّي العقل عقلًا؛ لأنَّه يعقل صاحبه عن التورّط في المهالك، وقيل: العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان... وعقل الشيء يعقله عقلًا: فهمه[8]".

كما جاء في (أساس البلاغة للزمخشري): عقل فلان بعد الصبا، أي: عن الخطأ الذي كان عليه[9].

إذًا فالعقل قوة اكتساب العلوم والخبرات، وهو قوة مراجعة للأقوال والأفعال؛ كي يصار بعدها إلى تحديد ما هو صواب لتثبيته، وما هو خطأ لتصويبه، ونعمة العقل – هذه التي خصّ بها الخالق سبحانه الإنسان- هي التي جعلته مؤهلاً للتعليم، وقد بيّن الحق – سبحانه وتعالى- ذلك في قوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 30، 31] .

هكذا يتضح لنا أنَّ الإنسان كائن عاقل، وقد ميّزه الله تعالى بنعمة العقل، والعقل أساس المعرفة والعلم، وهو مناط التفكير.

أمَّا طه عبد الرحمن فله رأي مختلف؛ إذً يرى أنَّنا لا يمكن أنْ نعتمد على العقل فقط؛ لأنَّه "قوة إدراكية تتمتَّع بها البهيمة أيضًا؛ فالبهيمة لا تهتدي إلى أغراضها إلا بعد محاولات متتالية تخطئ فيها أكثر ممَّا تصيب، وحتى إذا أصابت فلا تضمن لنفسها أنَّها لن تعود إلى الخطأ مرة ثانية"[10].

من هنا نستنتج من كلماته أنَّ هذه الميزة العقلانية موجودة أيضًاً عند الحيوان، وبالتالي ليست – في نظره – حدًا فاصلًا بين الحيوان والإنسان.

والسؤال هنا: ما الشيء الذي يميز الإنسان عن الحيوان عند طه عبد الرحمن؟

يذهب مفكرنا العربي إلى أنَّ العقل فعل من الأفعال الإنسانية والخلقية، وبالتالي العقل حسب رؤية الشرع يجمع التعقُّل والتخلُّق؛ بحيث يمكننا القول: إنَّ كل ما هو عقلي لا يصح إذ لم يكن أخلاقيًا.

كما أنَّنا نجده يؤكد على أنَّ ماهية الإنسان في الأساس ماهية أخلاقية وليست عقلية؛ أي أنَّ الإنسان كائن أخلاقي قبل أنْ يكون كائنًا عاقلًا، فقد يكون كائنًا ما عاقلًا ومع ذلك ليس إنسانًا إذا كان فاقدًا للأخلاق.

ولعل ما جعله يؤكد على ذلك أنَّ الحيوان يشارك الإنسان في العقل، وأنَّ الاختلاف في بعض أشكال العقل بين الإنسان والحيوان ليس اختلافًا في النوع، وإنمّا اختلافًا في الدرجة.

فالأخلاقية "هي ما به يكون الإنسان إنسانًا، وليست العقلانية كل ما انغرس في النفوس منذ قرون بعيدة[11]". أي كما شاع في الفكر الفلسفي الغربي القديم (اليوناني).

الحقيقة أنَّ (طه) أراد التأكيد على أنَّ التفكير يرتبط فيه العقل بالأخلاق، فلا بدّ من أنْ تبق الأفكار مقرونة بالأخلاق، وبالتالي يجب الارتكاز على هذه القيمة السامية من أجل تقويم كل الأنشطة والممارسات الإنسانية.

ولعل الركيزة الأساسية التي استند عليها عبد الرحمن في صياغة هذا الجواب هي: أنَّ العقل "لا يمثِّل إلا فرقًا في الدّرجة بين الإنسان والحيوان، بينما الأخلاق المنبثة من الرّوح تمثل فرقًا نوعيًا بينهما"[12].

فالأخلاقية وحدها هي التي تجعل أفق الإنسان مستقلًا عن الحيوان، فلا مراء في أنَّ البهيمة لا تسعى في الصلاح إلى سلوكها، كما تسعى إلى رزقها، مستعملة في ذلك عقلها؛ فالأخلاقية هي الأصل الذي تتفرَّع عنه كل صفات الإنسان.

والعقلانية التي تستحق أنْ تنسب إلى الإنسان ينبغي أنْ تكون تابعة لهذا الأصل الأخلاقي[13].

هكذا يتضح لنا أنَّ المفكر المغربي طه عبد الرحمن يؤكد أنَّ الأخلاق هي المحدِّدة لماهية الإنسان، بدل النطق والفعل اللذان حددتهما الفلسفة الغربية، أو حضارة اللوغوس حيث أنَّ العقلانية على درجات أدناها العقلانية المجرَّدة، وهي التي تخلو من الأخلاق، ويشترك فيها الإنسان مع الحيوان، ثم تليها العقلانية المسدَّدة بالأخلاق، التي يخص بها الإنسان دون سواه، وهي لا تخلو من آفات كثيرة، ثم العقلانية المؤيدة بالأخلاق، التي تعالج هذه الآفات؛ لتنشد الكمال والاكتمال وتجمع بين النظر والعمل.

وفي هذا إشارة واضحة إلي الحداثة الغربية وما يصدر عنها من أقوال وأفعال. فهذا التقويم الأخلاقي لتلك الحداثة الغربية يجعلنا نقف على سلبياتها، وهذا ما سيتضح معنا أكثر في المبحث الثالث.

المبحث الثالث- علاقة الأخلاق بالدّين

لا شك أنَّ السؤال المركزي لكتاب طه عبد الرحمن- سؤال الأخلاق- يتعلَّق بالصّلة بين الأخلاق والدّين؛ لذلك نجده قد أقدم على تفنيد التصوّرات الثلاث لصلة الأخلاق بالدّين التي أقامها العقل الغربي – كما ذكرنا- على طول تاريخه الفلسفي والأخلاقي، وهي تبعية الأخلاق للدين، وتبعية الدّين للأخلاق، وفصل الأخلاق عن الدّين.

1-تبعيّة الأخلاق للدّين:

يذهب طه عبد الرحمن إلى أنَّ الممثلين لهذا التصوّر الفيلسوفان الكبيران: القدّيس أوغسطين (354م -430م) والقدّيس توماس الأكويني(1225م -1274م) وهما من أوائل الفلاسفة الأخلاقيين في الفكر الغربي، وهما يستندان في قولهما إلى أصلين أثنين أحدهما: الإيمان بالإله، والثّاني إرادة الإله[14].

ويمكن تلخيص رأييهما خلال ما عرضه طه عبد الرحمن في كتابه الشهير (سؤال الأخلاق) على النحو التالي:

الأصل الأول- الأيمان بالإله:

ويقصد به هنا: التسليم بأنَّه لا أخلاق بغير إيمان، فالإيمان عبارة عن التصديق اليقيني بالوجود الغيبي للإله عن طريق القلب؛ فما دام الغرض من الأخلاق هو رسم طريق الحياة الطيبة للإنسان، فلا شيء يبلغ مبلغ الدين في الحرص على تحقيق هذا الغرض.

فالإيمان يورِّث المحبة، محبة الله والمحبة في الله، محبة الجار، أخلاق المحبة والرجاء.

الأصل الثاني- إرادة الإله:

يرى عبد الرحمن أنَّ أهل التقليد الفلسفي اليوناني لا تطيق عقولهم الإقرار بوجود إله واحد لا شريك له، فأحرى بهم ألا يطيقوا وجود إرادة إلهية واحدة، ناهيك بها آمره وناهيه بإطلاق: من أطاعها نال الثواب، ومن عصاها نال العقاب.

2- تبعيّة الدّين للأخلاق:

يمثِّل هذا الاتجاه في الفلسفة الأخلاق الغربية – كما يرى مفكرنا المغربي طه عبد الرحمن- الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط(1724م-1804م) الذي يجعل من العقل أساسًا؛ لبناء الأخلاق بشكل حرّ بالكامل، وقد اشتهرت فلسفة كانط الأخلاقية في الفكر الغربي خلال كتابه الشهير (أسس ميتافيزيقا الأخلاق).

وبما أنَّ المجال هنا لا يتسع إلى تناول فلسفته بشكل مفصَّل، لذا سيكون تركيزنا على نقد (طه) لهذا التوجُّه الفلسفي الأخلاقي خلال كتابه (سؤال الأخلاق).

يذهب كانط إلى أنَّ التديّن تتويجًا لمسيرة تخلُّقيه راقية، تحت حكم العقل الخالص بإطلاق، وليس العكس؛ أي لا يكون الإنسان متخلِّقًا؛ لأنَّه متديّن؛ بل يكون متدّينًا؛ لأنَّه في منتهى التخلُّق.

فالأخلاق الحقة عنده، هي أخلاق الواجب المنزّهة عن كلّ غرض مهما كان ساميًا ونبيلًا، والخضوع هنا فقط، لحكم العقل الخالص، والفعل على مقتضى الواجب، واعتبار مسلّمة الإنسان الأخلاقية الذّاتية مسلّمة كونيّة، لا تسقط في التناقض أبدًا، لذا؛ فالأخلاق – بهذا المعنى الفلسفيّ الصّارم – تبدو في غير حاجة إلى فكرة كائن مختلف عن الإنسان وأعلى منه؛ كي يعرف الإنسان واجبه، ولا إلى سبب غير القانون الأخلاقيّ نفسه ليتبعه... وبالنسبة إلى الأخلاق إذن، هي لا تحتاج مطلقًا إلى الدّين؛ بل تكتفي بذاتها بفضل العقل العمليّ الخالص"[15].

إذًا الأخلاق عند كانط لا تستقيم بغير سلطة ملزمة تستمد إلزامها من العقل، الذي يعرف الواجب وخصائصه، ويأمر به، والإنسان باعتباره عقلًا داركًا يضع القوانين الأخلاقية لنفسه "فيكون الإنسان هو المشروع والمنفِّذ في الوقت نفسه"[16].

إذًا كانط يؤكد أنَّ الأخلاق تعتمد على العقل فقط، وليس على الدين، والسؤال هنا: ما موقف طه عبد الرحمن من هذه المسألة؟

الحقيقة أنَّ عبد الرحمن يرفض ما ذهب إليه الفيلسوف الألماني كانط، مستندًا إلى نقد وجَّهه أحد الفلاسفة الغربيين المعاصرين، ويتمثَّل هذا النقد في القول: إنّ كانط قد مارس نوعًا من التمويه؛ ليخفي دور الدّين في بناء الحكم الأخلاقي، هذا التمويه اتخذ شكل (علمنة للدّين المسيحيّ) عبر طريقين، هما[17]: طريقة المبادلة، وطريقة المقايسة.

طريقة المبادلة: أي بدلًا من أخذ المقولات المعهودة في الأخلاق الدّينية، تؤخذ مقولات أخلاقية مقابلة لها، غير معهودة بنفس الاستخدام النّظري في هذه الأخلاق، مثل: استبدال مفهوم الإيمان بمفهوم العقل، والإرادة الإلهية بالإرادة الإنسانية، ومحبّة الإله باحترام القانون، والتنزيه بالتجريد...إلخ.

طريقة المقايسة: يقصد بها تقدير الأحكام الأخلاقية العقلية، مثل: الأحكام الدّينية، ومن بين مظاهر هذه المقايسة: أنْ تقابل الأخلاق المقرّرة من العقل المجرّد بالأخلاق

المقررة من الدّين، وتبعًا لذلك يقابل مصدر الأخلاق الأولى الذي هو العقل الإنساني، بمصدر الأخلاق الثاني الذّي هو العقل الإلهي أو الإرادة الإلهية...إلخ.

هكذا كان رفض طه عبد الرحمن لنظرية كانط الأخلاقية.

ويرى الباحث بأن المتمعن في فلسفة كانط الأخلاقية يدرك أن له رأي مخالف ومميَّز؛ لما كان عليه الفلاسفة قبله وبعده من وجهة نظر العقل، وأنَّ النقد الموجَّه لفلسفته كان بسبب تجاهل كانط لعديد العوامل المتداخلة في السلوك الإنساني، وأهمها الأساس الروحي.

3. استقلال الأخلاق عن الدّين:

يذهب طه عبد الرحمن إلى أنَّ دعوة انفصال الأخلاق عن الدين قد تفرَّعت في الفلسفة الحديثة الغربية، التي عرفت تحت عنوان أشبه بشعار مذهبي، وهو: لا وجوبّ من الوجود. وقد اشتهر بهذه المسألة – كما يرى طه عبد الرحمن – الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم (1711م–1776م) الذي سميت المسألة باسمه، قانون هيوم.

ويمكن لنا أنْ نلخِّص رأي ديفيد هيوم، على النحو التالي:

أولًا: يرى طه عبد الرحمن أنَّ الفيلسوف الإنجليزي هيوم يخرج الأحكام الدينية من الأحكام الأخلاقية، ذلك أنَّه يحصر الحكم الديني في الأخبار عن المغيبات كما يكون الحكم الطبيعي محصورًا في الأخبار عن المشاهدات والمحسِّسات، ولمَّا كان الشيء الخلقي غير الشيء الخبري، فإذن لا يمكن أنْ يكون الحكم الديني حكمًا أخلاقيًا مثله في ذلك مثل الحكم الطبيعي؛ لذلك صار لا يصح أنْ نستنتج منه قولًا أخلاقيًا.

ثانيًا: يعد ديفيد هيوم أنَّ الأحكام الدينية لا تصلح لأنْ تؤسس الأحكام الأخلاقية؛ والشواهد على ذلك متعدِّدة؛ منها: ردَّه على أنَّ الخير والشر توجهما طبائع الأشياء ذاتها، لا إرادة مريد، كائناً ما كان، إلهًا أو ملكًا، وأيضًا ردَّه على معاصريه من الأخلاقيين المتدينين الذين يقيمون الأخلاق على قاعدة الإرادة الإلهية، مدعيًا أنَّها لا تتأسى إلا على الوجدان الإنساني، وليس كما يظن على إرادة الإله، ولا على عقل الإنسان[18].

هكذا بعد أنْ يعرض لنا طه عبد الرحمن رأي ديفيد هيوم في انفصال الأخلاق عن الدين، يورد لنا جملة من الاعتراضات كان قد اختصرها في اعتراضين جامعين – كما قال:

الاعتراض الأول: اعتبارهم الدين أشبه بالنظرية، والنظرية – كما يرى – ليست إلا نسقًا متكاملًا من القضايا الخبرية، وأنَّ الأحكام الدينية –عنده– افتراضات وضعها الإنسان من لدنه؛ كي يفسِّر بها تجربته في العالم.

وبالتالي كان رد المفكر المغربي طه عبد الرحمن عليه بأنَّ أحقية الدين أشبه بالمؤسسة وليس نظرية، بل هو مؤسسة، وبالتالي فالمؤسسة تقتضي أنْ تكون هناك مجموعة أحكام ومعايير تحدِّد كيفيات العمل؛ من أجل تلبية حاجات معينة، وإذا كان الأمر كذلك، لزم أنْ يتضمَّن إلى جانب الأقوال التي تخبر عن الموجودات أقوالًا وجوبية تحدِّد العلاقات بين هذه الموجودات؛ جلبًا للمنفعة ودفعًا للمضرة.

هكذا يرد طه على هيوم بأنَّ المؤسسية تنطوي على أحكام وجوب بقدر ما تنطوي على أحكام وجود؛ فالدين أخلاقي بقدر ما هو إخباري.

الاعتراض الثاني: إنكار حضور الدين في الأخلاق: أي أنَّ هيوم يستبعد تأثير الدين في الأخلاق، وكان رد طه عليه بأنَّ الوعي بمصدر القيمة الأخلاقية يرجع إلى الدين، وليس كما أدعى أنَّنا عندما نلحظ أفعالنا أو أفعال غيرنا، نحكم عليها، بفضل حس داخلي مباشر؛ بالحسن متى وجدنا سببًا في هذه اللذة وإدبارنا كلما وجدنا سببًا في هذا الألم.

وبما أنَّ المجال هنا لا يتسع إلى استيفاء الكلام بالتفصيل عن رأيه، إلا أنَّنا يمكننا القول بأنَّ طهيرى أنَّ للقيمة الأخلاقية مصدرًا خاصًا في ذات الإنسان، يرجع إلى تصريح النص الديني بذلك، كما أنَّ الخير في الدين لا يمكن أنْ يكون خيرًا صرفًا، بل أنَّه لا ينفك عن واحدة أو أكثر من القيم الأخلاقية[19].

هكذا وبعد أنْ عرفنا موقفه من المواقف الثلاثة – كما ذكرنا– من الصلة بين الدين والأخلاق في الفلسفة الغربية الحديثة المتمثلة في تبعية الأخلاق للدين، وتبعية

الدين للأخلاق، واستقلال الأخلاق عن الدين، فأنَّه يؤكد لنا رأيه إلى ضرورة وجود أخلاق ترتكز على الدين، بل تصير هي والدين شيئًا واحدًا، فلا دين بغير أخلاق ولا أخلاق بغير دين.

وهذا لا يتم إلا إذا تخلَّصنا من اعتقادات شائعة عن الدين والأخلاق، ونخص بالذكر اثنتين منها:

1- الدين لا ينحصر في شعائر ظاهرة، لا معاني خفية تحتها، بل أنَّه لا فائدة من وراء الإتيان بالشعيرة دون تحصيل السلوك وفق المعنى المخفي الذي يكمن فيها.

2- الأصل في الأخلاق هو حفظ الأفعال الكمالية، أي أنَّ الأخلاق ليست كمالات، بمعنى زيادات لا ضرر على الهوية الإنسانية في تركها، وإنَّما هي ضرورات لا تقوم هذه الهوية بدونها، بحيث إذا فقدت هذه الضرورات فقدت الهوية، وإذا وجدت الأولى وجدت الثانية.

أخيرًا يمكننا القول بأنَّ طه يدعو إلى تأسيس الأخلاق على الدين، بل ويجعلها والدين شيئاً واحداً.

المبحث الرابع – مكانة الأخلاق في الدّين الإسلامي:

الدين الإسلامي دين شامل، ينظِّم جميع مناحي الحياة، ويلبِّي حاجات الإنسان جميعها. فهو دين للإنسان ومن أجل الإنسان، ومن هنا جاءت تعاليمه ملائمة للطبيعة الإنسانية مع كل المتطلَّبات، والاحتياجات المشروعة للإنسان فردًا كان أو في جماعة، ومن أجل تحقيق النهضة له في مجتمعه الذي يعيش فيه، لا بد وأنْ يتحقَّق مبدأ الترابط بينه وبين بني جنسه.

لذلك فالدعوة الإسلامية دعوة أخلاقية، تشتمل على المبادئ الأخلاقية السامية والقيم السلوكية الرفيعة، حتى أنَّ النبي (ﷺ) حصر مقصد بعثته في الأخلاق، في قوله(ﷺ): "إنَّما بعثتّ لأتمّم مكارم الأخلاق[20]".

لا شك أنَّ الأخلاق في الإسلام لها مكانة عظيمة، فهي تعدّ الغاية التي من أجلها أرسل النبي "ﷺ" كما ذكرنا.

هذا ويبين لنا الرسول –ﷺ– تلك المكانة في حديث آخر حيث قالﷺ: "إنَّ من أحبكم لي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإنَّ أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون"[21] وأيضًا قولهﷺ: "إنَّ الله كريم يحب الكرم، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافه[22].

كما تضافرت نصوص الوحي على الحث على الأخلاق الحسنة، والترغيب في فضائل الأخلاق، هذا من جانب، ومن جانب آخر: النهي والتحذير من رذائل الأخلاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾. سورة النحل، الآية:90.

مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية لا يستغنى عنها أيَّ مجتمع من المجتمعات، فبوجودها يوجد التفاهم والانسجام بين أفراد المجتمع، أمَّا إذا فقدت هذه المكارم، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدَّى بهم ذلك إلى الانهيار ثم الدمار.

الحقيقة أنَّ مكارم الأخلاق تزيِّن الإنسانية، وتعلى شأنها، وتنسِّق بين أفرادها، وتصون العلاقات الجماعية، وتوجِّهها إلى الخير والكمال؛ لتصّور الحياة البشرية في أجمل صورها، وأحسن أحوالها، وتجنُّب الرذيلة، وإفساد الخلق الاجتماعي.

فإذا كانت الأخلاق ضرورة في نظر المذاهب والمدارس الفلسفية، فهي في نظر الإسلام أكثر ضرورة وأهمية، ولهذا فقد جعلها مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، فهو يعاقب الناس بالهلاك في الدنيا؛ لفساد أخلاقهم، يقول سبحانه وتعالي: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾. سورة يونس، الآية:13، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.سورة هود، الآية:117.

ولعل هذا ما دفع (طه عبد الرحمن) إلى ضرورة التأكيد على أهمية الأخلاق؛ أي مكارمها ومحاسنها، فهي ضرورة روحيّة واجتماعية وحضاريّة.

فالأخلاق التي يتبناها الإسلام – في رأيه– مكارم الأخلاق، لذلك نجده ينبِّه إلى أنّ مكارم الأخلاق، ليست على معنى مكارم الأخلاق؛ أي تكاملات للأخلاق.

وأنَّ الفهم الصحيح – في نظره – يستوجب تنزيل الأخلاق في مرتبة المصالح الضّرورية، وليس في الكماليّات، فما ينبغي لدين إلهيّ، كما يقول (طه عبد الرحمن): "أنْ ينزّل إلى النّاس، مقدّماً الاهتمام بشؤون الحياة الماديّة للإنسان على الاهتمام بكيفيّات الارتقاء بحياته الروحيّة!"، ويضيف قائلًا: "وهل في المصالح ما يختصّ بكيفيات هذا الارتقاء غير الأخلاق!"[23].

وبما أنّ الأخلاق– في نظره– تتبع الدّين، فحفظ الدّين: هو حفظ الأخلاق، وبما أنَّ حفظ الدّين معدود لدى الفقهاء والأصوليين من بين المصالح الضّرورية، فحفظ الأخلاق – أيضًا – يعدّ من الضّروريات، زد على ذلك؛ أنّ إنسانيّة الإنسان لا تتحقق إلا بالأخلاق، وإلا انحطت درجة الأنام إلى درك الأنعام. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[24].

هكذا يتضح لنا رأي (طه عبد الرحمن) خلال كتابه الشهير (سؤال الأخلاق)، الذي يؤكد فيه على الصلة الكبيرة بين الأخلاق والدين، فلا دين بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير دين، فالدين والأخلاق شيء واحد، فجوهر رسالة الدّين رسالة أخلاقية، وهي في مرتبة الضّروريّات الجالبة للمنافع الرّوحية والماديّة، والدّافعة للمفاسد السّلوكية والماديّة، وما الحسّ الأخلاقي الذي تحدّث عنه فلاسفة الغرب أمثال: (هيوم) إلاّ فطرة الله التي فطر النّاس عليها، لا تبديل لخلق الله"[25]، بالتالي هناك اتّحاد كامل بين خلق الله الفطريّ، والأخلاق السويّة التي هي مكارم الأخلاق.

أخيرًا يمكن القول: إنَّ الأخلاق هي عنوان ارتقاء الأمم، وكل الأديان تحث عليها وتوصي بها، فما أحوجنا اليوم إلى أخلاق الدين، وأنْ نعود إلى وصايا رسولنا الكريم في مجال الأخلاق حتى نستطيع أنْ نتجاوز المرحلة الصعبة التي نعيشها ونعبر بمجتمعنا إلى بر الآمان.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة العلمية في ربوع (حاجتنا اليوم إلي أخلاق الدين (طه عبد الرحمن) توصل الباحث إلى جملة من النتائج، هي:

1- المتمعِّن في كتاب طه عبد الرحمن (سؤال الأخلاق) يدرك أنَّه مساهمة فعَّالة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية.

2- سلك طه عبد الرحمن طريقًا مختلفًا عن غيره من مفكِّري المسلمين المعاصرين حاول من خلاله أنْ يُعيد الاعتبار لسؤال الأخلاق باعتباره البداية الرئيسة لإعادة إحياء الإنسان بعدما تقاذفته قوى المادية الناتجة عن عمليات العقلنة غير المسددة بالأخلاق.

3- الأخلاقية هي ما يكون به الإنسان إنسانًا، وليست العقلانية كما انغرس في النفوس منذ قرون بعيدة.

4- العقل لا يمثِّل إلا فرقًا في الدرجة بين الإنسان والحيوان، الأخلاق المنبثة من الروح، تمثل فرقًا نوعيًا بينهما.

5- أي حضارة مقياسها الأول هو الأخلاق، فهي ميراث الإنسانية، كما هي ميراث الأديان. وأنَّ أساس هذا الدين العظيم هو مكارم الأخلاق ومحاسنها.

المصادر والمراجع

(1) ابـن منظـور، لسـان العـرب، دار لسـان العـرب – بيـروت، ج1، 1955م، ص889.

(2) الموسوعة "نظرة في مكارم الأخلاق الرسول"، مجموعة من الباحثين، دار الوسيلة ـ جدة، ط1، 1998م، ج1، ص61.

(3) ابـن مسـكويه، تهـذيب الأخـلاق، تحقيـق: نـواف الجـراح، دار صادرـ بيـروت، 2006م، ص30.

(4)أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، الدار المصرية اللبنانيةـ القاهرة، "د ـ ت"، ص53.

(5) عبـد الـرحمن الميـدان، الأخـلاق الإسـلامية وأسسـها، دار القلـم – دمشـق، ط4، 1996م، ص57.

(6) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ج2، ص319.

(7) محمد عبد الله دراز، الدين، ص33.

(8) ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص458، 459.

(9) الزمخشري، أساس البلاغة، دار النفائس – بيروت، ط1، 2009، ص403.

(10) سؤال الأخلاق، ص13.

(11) المصدر السابق، ص14.

(12)المصدر السابق ص14.

(13) المصدر السابق ص14.

(14) المصدر السابق ص41.

(15) المصدر السابق ص37.

(16) محمد السيد الجليند، في الفلسفة الخلقية لدى مفكري الإسلام، مكتبة نهضة الشرق –مصر، 1990م، ص102.

(17) المرجع السابق ،ص39.

(18) المرجع ، السابق ص43.

(19) المرجع السابق ص46-51.

(20) أخرجه أحمد في مسنده، ج4، ص193.

(21) رواه البيهقي في شعب الإيمان، ج6، ص241.

(22) طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، ص51.

(23) طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، ص51.

(24) سورة المؤمنون، الآية: 21.

(25) طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، ص46.